الفصل العاشر

الأبواب المغلقة ٢٠٠١

وأحدث معارك الصحافة المصرية فى تحريض الرقابة على منع الأفلام معركة «الأبواب المغلقة» إخراج عاطف حتاتة فى مايو ٢٠٠١ ، والتى عبرت عن أساليب التفكير السائدة فى مصر فى بداية القرن الواحد والعشرون.

تحت عنوان «عينة لأفلام التمويل الأجنبى» تقول الناقدة السينمائية خيرية البشلاوى فى جريدة «المساء» اليومية يوم الأحد ٢٠٠١/٥/٢٧ أن الفيلم يعبر عن «مناخ عام مغلق مسحوق بأشكال الفقر تعلو فيه أصوات المآذن وتتداخل مع بعضها فى توقيت واحد تتنافر وتنتشر فى جنباته الفساد، فلا توجد فى الفيلم شخصية واحدة إيجابية ولا عنصر واحد يمنح الأمل فى حاضر أو مستقبل. والملمح الأكثر حضوراً اتساخ الشوارع وفقر الناس المادى والأخلاقى والروحى والمعنوى فضلا عن إنهيار المؤسسات التعليمية والإعلامية ومظاهر الفن أو التحضر». وعندما تذكر الناقدة اسماء الشخصيات فاطمة وزينب ومحمد

وحسن وخالد تضع بين قوسين (تأمل الأسماء) بمعنى أنها تشمل اسم النبى محمد عليه الصلاة والسلام وأسماء ابنتيه والحسن ابن على وخالد ابن الوليد!

وتقول الناقدة التى تمارس النقد السينمائى منذ أكثر من ربع قرن «الفيلم فى النهاية يمثل عينه دالة وكاشفة وصالحه للدراسة عن الأعمال التى تفوز بالتمويل الأجنبى»، وأن «الواقعية (الكلمة بين قوسين) التى تتبناها هذه الأفلام مقضى عليا أمام جمهور سوف يرفضها بالقطع، والأمل الوحيد أمامها هو هذا التمويل الأجنبى الذى يرعاه موزعون ومنتجون محليون حققوا مكسبهم (الكلمة بين قوسين) قبل أن يبدأ عرض الفيلم».

وفى نفس اليوم نشرت جريدة «العربى» الأسبوعية التى يصدرها الحزب الناصرى (نسبة إلى جمال عبد الناصر) مقالا للكاتب السياسى يوسف الشريف تحت عنوان «يوسف الشريف يحذر من فخفاخ التمويل الفرنسى: الأبواب المغلقة حتى أشعار آخر» بدأه بقوله:

«الأبواب المغلقة فيلم مشبوه ومفضوح وسىء النية مع سبق الأصرار والترصد بمصر والمصريين. وقد بدأ إنتاج هذا الفيلم أوائل التسعينات فى أعقاب حرب الخليج الثانية، ثم تعثر لأسباب يطول شرحها. وبينها الجدل العقيم الذى شهدته أروقة الرقابة على المصنفات الفنية شهورا حول العديد من المشاهد التى لاتندرج فحسب تحت قائمة الأباحية الجنسية المحظورة، وإنما لتطاولها على قيم وعادات الشعب المصرى وموروثه الدينى والأخلاقى خاصة إعلائه لمكانة الأم بدعوى الواقعية أو حريةالإبداع. وبينها محاولة الصبى الصغير الفنان المدهش أحمد عزمى بطل الفيلم الهم بوالدته الفنانة القديرة سوسن بدر بنية المواقعة والتلصص عليها عارية فى الحمام، الأمر الذى يدعونا إلى الثناء على الرقابة عندما رفضت عرض هذه المشاهد الفجة وما شابهها، وأصرت فى شجاعة حذفها رغم اتهامها تارة بالسلفية والماضوية وأخرى بالعداء للانفتاح والتنوير،

ومع ذلك لم يسلم الفيلم من احتضان الطفل غير البرىء لوالدته بعد التخفيف من نية المواقعة التى أدركتها فى حينها وصدته عنها، وكذا المشهد «البورنو» حين إلتحم اللحم باللحم، وإلتقت شفتا الفنان محمود حميدة فى دوره الباهت بشفتى سوسن بدر وراح يستعرض أكتنازه ومنحنياته مرتشفا ومدغدغا فى تباطؤ مقصود لذاته!

والحقيقة إننى لم أستبشر خيراً منذ استعراض مقدمة الفيلم بالشكر والامتنان لعدد من المؤسسات الثقافية والفنية والفرنسية، على أسهامها بسخاء وبالعملة الصعبة ـ طبعاً ـ فى كلفة انتاجه، لا لتعصب ضد كل ماهو أجنبى بمنطق المؤامرة والعياذ بالله، وإنما لتراكم وعينا بالخطط والأساليب الذكية للاختراق الثقافى والعولمة التى تذكرنا بالعقوبات الذكية المراد فرضها على العراق. والا ما هو السر فى أعمال معيار الانتقائية لكل ما يشين إلى مصر.. والازدراء بالمصريين فى الأعمال الأدبية والبحوث الاجتماعية والسياسية المرشحة للترجمة مدفوعة الأجر سلفا للمؤلف أو الباحث، فضلا عن حصد الجوائز، وهل يمكن بالتالى استثناء مركز ابن خلدون لصاحبه الدكتور سعد الدين إبراهيم وشركاه من الوقوع فى شرك هذه الانتقائية المريبة بعد أن نالوا ما يستحقونه من أحكام القضاء العادل، وكيف نفسر ما تنشره الصحافة والمحافل العلمية فى أوروبا وأمريكا تباعا ويشيرا بأصابع الاتهام بالتعصب والتخلف والجور والاستبداد إلى مصر والمصريين، وهو معين لاينضب من انتاج وتوريد بعض مراكز البحوث وحقوق الانسان المصرية، كونها مادة مطلوبة فى الخارج ومرحبا بها وتجد ما تستحقه من المكافأة بل والحماية أيضاً!».

ويقول الكاتب: «ولأن انتاج الفيلم بدأ فى اعقاب أزمة الخليج، من ثم تحاشى العراق فى لافتات شركات السفن كبلد عربى يرحب بالعمالة المصرية،

وزادمن نفاقه للكويت حين انحاز بالعداء لصدام حسين «ويستطرد» ورغم أن مودة المعالجة السينمائية لظاهرة التطرف الأصولى قد انحسرت مع انحساره فى مصر، إلا أن فيلم «الأبواب المغلقة» رأسه وألف سيف التأكيد على استمرارها وتصاعدها عينى عينك دون رادع من القانون، وفى ظل الغياب المطلق لقوات الأمن وربما تحت سمعها وبصرها وإلا كيف قدر للجماعات الأصولية أن تعقد اجتماعاتها علنا وفى حضور الآلاف، وهذا الغث من الجهالة والتجهل الذى حفلت به الخطب الدينية وحوارات ومعاملات هذ الجماعات والأكثر غرابة فى المعالجة أن تتكفل فى نفس الوقت بإطعام الجائعين اناجر من الفتة المرصعة بالضأن ومد يد المساعدة المالية لفك ضائقة المحتاجين والسعى إلى زواج الأرامل والشباب الذين لاعمل لهم ولايملكون قوت يومهم، اتساقا مع شعار «الإسلام هو الحل».

ويختتم يوسف الشريف مقاله قائلا:

«أغلقت الأبواب وسدت كل المنافذ فى وجه السواد الأعظم من الشعب المصرى، وذلك على وجه التحديد واليقين السبب فى انتقاد قصة الفيلم وتمويله من المؤسسات الفرنسية، ولا ينسى الفرنسيون ولايتعلمون ابدا، لاينسون إخفاق نابليون فى استباحة مصر وثورة ازهرها الشريف، وأفول حلمه فى التوسع الأمبراطورى عبر مصر، وهزيمتهم الماحقة فى عكا على يد الفلسطينيين، ولا طردهم من لبنان وسوريا والجزائر، ولا يتعلمون أن استعادة ما كان لهم من نفوذ بالوسائل الثقافية والفنية المشبوهة إختراق واستعمار جديد ومرفوض معلوم سلفا، وعليهم أن يكفوا عن الزراية بالإسلام والمسلمين بالعرب والعروبة، لأن إسرائيل المستفيد الوحيد من هذا النهج المعوج والسلوك الخاطىء بينما بناء جسور الثقة والتلاقح الحضارى بيننا وبينهم أفضل وأكثر نفعا من إجترار مرارات الماضى

واحقاده وثأراته المغلفة بالإبداع والنوايا المشكوك فى مصداقيتها».

وفى الأسبوع التالى مباشر٣/٦/٢٠٠١ نشرت «العربى» على صفحة كاملة ٣ موضوعات عنوان الأول «يسرا رفضت بطولة الأبواب المغلقة بسبب المشاهد الساخنة»، وعنوان الثانى «سوسن بدر تدافع عن نفسها: محمود حميدة لم يلمسنى فى مشهد الجنس العارى». وعنوان الثالث «عاطف حتاته يرد: مشهد الولد وأمه لا يستحق كل هذه الحساسية». وفى نفس الصفحة مقالين عن الفيلم الأول للكاتب سعيد شعيب يلوم فيه على المخرج التعسف الشديد، والخروج الأخلاقى من بعض شخصياته على حد تعبيره، والثانى للناقد السينمائى أحمد يوسف يقول فيه:

«إن البعد الجنسى ـ الذى لايمكن أن نتجاهله أبدا فى تجربة صبى على عتبات المراهقة، بل لعله البعد الأهم فى صياغة نتائج هذه التجربة.. هو ما آثار بعض الكتاب الذين هاجموا فيلم «الأبواب المغلقة» بسبب إحتوائه على بعض التلميحات الأوديبية فى علاقة الابن بأمه لكنهم تجاهلوا ـ أو جهلوا أن تلك العلاقة الأوديبية لا تأتى رغبة فى «قتل الأب». وإنما بسبب «غياب الأب»، وهو الغياب المادى أو المعنوى أو كلاهما معا، الذى يحمل دلالات سياسية شديدة الوضوح، إذ يعنى افتقاد الأب الذى «يحمى» بدلا من أن يقمع، أو يبيعك مثل أى سمسار فى سوق النخاسة كما فى «الأبواب المغلقة». ويقول «وإذا كنت قد إستطعت فى السطور السابقة أن تفهم طرفا من «حدوتة» الفيلم، فأن الأكثر أهمية هو أن فيلم «الأبواب المغلقة» يستخدم لغة سينمائية شديدة البلاغة والإبلاغ، يندر أن تجد لها مثيلاً فى أفلامنا العربية».

المؤامرة الغربية

ليس هذا كل ما نشر عن فيلم عاطف حتاتة، وقد كانت المقالات الإيجابية

لنقاد السينما أكثر من المقالات السلبية على أية حال، ولكن النماذج المختارة كما ذكرنا تدل على أساليب التفكير السائدة فى مصر تجاه الانتاج المشترك، بل وتجاه كل شيء. فنفس هذه المقولات تتردد عند تصوير الأفلام الأجنبية، وعند وجود تمويل أجنبى لأى بحث، بل إن حقوق الإنسان مشبوهة لو كان وراء المؤسسات التى تدافع عنها تمويل أجنبى. وإذا لم يكن هذا نتيجة الشعور بوجود مؤامرة أجنبية حتى لو نفى يوسف الشريف ذلك، فماذا يكون إذن.

ماذا يكون وراء ملاحظة تداخل أصوات الآذان فى مقال الناقدة خيرية البشلاوى، وتنبيه القراء إلى الدلالات الإسلامية لأسماء الشخصيات، وهو ما يستحيل أن يخطر على بال المخرج المؤلف، غير الشعور بالمؤامرة الأجنبية على المصريين والعرب والمسلمين. وماذا يكون وراءالقول بأن الفيلم يخلو من أى شخصية إيجابية، بينما شخصية الأم إيجابية تماماً، وهو ما لا يصعب إدراكه على ناقدة محترفة إلا عندما يغمرها الشعور بالمؤامرة. وكما يتضمن مقال الناقدة دعوة الجمهور إلى رفض الفيلم، يتضمن مقال الكاتب السياسى الثناء على الرقابة، والثناء على نفسه لأنه ليس متعصباً ضد كل ما هو أجنبى بمنطق المؤامرة، وإنما لتراكم وعيه بالخطط والأساليب الذاكية للاختراق الثقافى.

الواقع أن مقال يوسف الشريف يعبر عن التفكير السائد فى مصر الآن تجاه كل شيء وليس فقط تجاه الانتاج السينمائى مع طرف أجنبى. فكل التيارات من اليسار إلى اليمين مروراً بالوسط تتفق على إهدار قيمة الحرية، أو بالأحرى اعتبارها ليست قيمة على الإطلاق. إنهم جميعاً يرتدون الخوذة العسكرية والعمامة الدينية معاً بدرجات متفاوتة، ولم يعد هناك إلا صوت خافت جداً وغير مسموع لمن يؤمنون بالحرية. ولذلك ليس من الغريب أن يوجه يوسف الشريف الثناء للرقابة، ويدافع عن نظام صدام حسين فى العراق فى نفس الوقت.

ليس هناك فى فيلم عاطف حتاتة بأى حال من الأحوال ما يدفع يوسف الشريف أو غيره إلى القول بأنه ينافق الكويت وينحاز بالعداء لصدام حسين، ولا يوجد دليل واحد يبرر للكاتب استخدام كلمتى نفاق وعداء، بل إن تعليق الشخصية الرئيسية (الأم) على الحرب بالنص «بلا كويت بلا عراق بلا قرف»، وهو تعليق يؤخذ على عاطف حتاتة لأنه هروب من اتخاذ موقف واضح مع أو ضد غزو العراق للكويت. ولكن الكاتب مثله مثل كل التيارات السائدة فى مصر التى تهدر قيمة الحرية يرفض الموقف المحايد للمخرج، ويعبر عن وجهة نظر هذه التيارات التى ترى أن احتلال العراق للكويت أهون من التدخل الأجنبى الذى أدى إلى تحرير الكويت وتدمير العراق، وكأنه كان على الكويت أن تختار بين تحريرها وبين تدمير القوات التى قامت بغزوها.

وتتكامل المنظومة الفكرية للكاتب يوسف الشريف مع القول بأن ظاهرة التطرف الأصولى انحسرت فى مصر، ومع ذلك فالفيلم يرى أنها مستمرة. نعم، لقد انحسرت بالفعل كظاهرة، وأصبحت من تيارات الفكر السائد، وأوشكت أن تصبح التيار الغالب على كل التيارات. ويصل تكامل المنظومة بالحديث عن اسرائيل، فهى كما يرى الكاتب المستفيدة الوحيدة من فيلم «الأبواب المغلقة» عن طريق الزراية بالاسلام والمسلمين والعرب والعروبة. وبالطبع ما أن تتحدث عن اسرائيل حتى يصبح على الطرف الآخر الذى يقرأ أما أن يخرس أو يتهم بالخيانة، فهى الوسيلة الأسهل لإنهاء كل حوار، فالفيلم جزء من المؤامرة الغربية، وإسرائيل هى ذروة تلك المؤامرة.